العرب الثقافي
الأحد 2020/01/19
السنة 42 العدد 11591

الكتابة في زمن المأساة

الإنسان المتوحّش والضحية الغافلة وصوت الشاعر

نوري الجراح
شاعر سوري مقيم في لندن

ثمة في التاريخ وقائع مأساوية تذهل عصرها، تصدم بفواجعها الأرواح وتربك العقول، وتجعل الكائنات مشلولة الإرادة وعاجزة عن التفكير. الواقعة المأساوية أقوى من كل قدرة على التعبير عنها. بل إن خبرات اللغة نثراً وشعراً سوف تبدو فقيرة، تماماً، أمام البلاغة الصادمة للواقعة المأساوية.

لذلك فإن الامتحان الأخطر للشاعر في زمن المأساة هو في مدى قدرته على خوض نزال شرس ومرير مع لغته وطرائقه الفنية لأجل اجتراح لغة يمكن لبلاغتها الانتصار على بلاغة المأساة.

> **العالم كله وطن الشاعر، لكن هذا الانتماء محكوم بمصادفات وضرورات لم تكن غالبا من اختياره. بهذا المعنى لا وطن نهائياً للشاعر سوى قصيدته فهي بيته الذي اختار**

(هل هذا ممكن؟) في مثل هذه المنازلة مع الذات لا بد للشاعر أن يجد اللغة التي تمكنه من كتابة ملحمته الشخصية، لا أن يقبل على صنيعه الشعري بوصفه تسجيلاً ملحمياً لمأساة شعب في سطور شعرية، تكرّر، ولو بلغة معاصرة، لغة الملاحم القديمة. أظن أنّ لا قيمة لمثل هذا السير على خطى الشعراء القدامى في كتابة حديثة، مهما قيّض لشاعرها من موهبة، ومهما قيّض لها من القوة الشعرية المتفوقة.

إذا استطاع الشاعر أن ينتصر على ذاته في مثل هذه المعركة مع اللغة، فإن كل وقت بعد ذلك سيكون صالحا لكتابة قصيدة تتفوق على زمنها وتنافس ببلاغتها الجديدة بلاغة الواقعة المأساوية.

ورغم هذا الاشتراط، لا بد أن نؤمن بأن الشعراء سيكتبون اليوم وغداً شعراً يُعتدّ به، إن في ظلال المأساة وبفعل الطاقة الشعورية المهولة التي تبثها في زمننا وأجيالنا الطالعة، أو بفعل الجرح الأخلاقي الذي تتسبب به لعصرنا كله الجريمة الجماعية المتروكة بلا عقاب.

ما يؤسف له أن مستحيلات كثيرة وقعت خلال العقد الأخير، وهو عقد يمكننا أن نسمّيه بامتياز عقد التراجيديا السورية. فبأيّ كلمات يمكن للشاعر أن يصف المستحيل؟

لا بد من لغة جديدة، كما أشرت من قبل. ومن وظائف الشعراء اختراع اللغة وابتكار الطريقة.

وبمناسبة التطرق إلى التراجيديا الكبرى الراهنة، وهي في نظري تراجيديا كونية، ليس في وسعنا أن نتّهم البشر جميعهم بانعدام الضمير، بإزاء الآلام البشرية، لكن علاقات القوة والضعف ومشروعات الهيمنة على المجتمعات بوصفها إسطبلات لجموع مستهلكة وأسواقاً للاستهلاك، جعلت العالم بأسره عاجزاً عن وقف الجرائم الجماعية في العالم، عاجزاً عن منع القتلة من ارتكاب المزيد من الآثام. لقد ارتكبت الجرائم المريعة في سوريا على الهواء مباشرة، وبأبشع الطرق التي عرفتها أزمنة التوحش. كانت شبكة الإنترنت والتلفزات تنقل وقائع عمليات الإبادة (وهي ما تزال تفعل)، بينما المتفرجون حائرون في تفسير ما يجري.

يا للهول كيف تحوّل "الضمير العالمي" إلى جملة لغوية مجردة من أي معنى، ولا تثير لدى سامعها سوى السخرية، والشعور بالغثيان.

ولكن كيف تحوّل العالم مرة واحدة إلى أصمّ، أبكم، وأعمى بإزاء أعمال القتل، وهو عالم أمكنه أن يترقى حقوقياً إلى درجة رفيعة من "الرفق بالحيوان"؟ هذه جملة أخرى مثيرة للسخرية. خصوصا عندما يقتل الأطفال بالقنابل الذكية ولا يحتاج ذووهم إلى البحث عن أشلائهم فقد دفنوا قبلهم تحت الأنقاض. حدث هذا في سوريا والعراق واليمن وجغرافيات أخرى.

المسألة إذن لا علاقة لها بالضمير وما شابه، ولا بالدساتير والأعراف والمفاهيم الإنسانية، فهذه بريئة وعاجزة. بل بشيء آخر، مختلف تماماً، هو ميزان القوة في العالم، باستراتيجيات الدول الكبرى واقتصاداتها وبمصالح الشركات والبنوك والأسواق الجشعة، والتي بموجب سياساتها راحت تتحدد مصائر الجغرافيات والأوطان والبشر، وكذلك سلوك السلط المحلية الدائرة في فلك القوى المهيمنة في العالم، وما أخذت ترسّخه هذه السلط التابعة من أساليب الحضور والغياب في عالم باتت له صورتان متقابلتان: "الإنسان المتوحش" و"الضحية الغافلة".

فالإنسان البريء في ظل تكنولوجيا الأسلحة الذكية مجرد خيال افتراضي يتحرك من بعيد في شاشة عملاقة تجعل كل شيء في الوجود افتراضياً، ولا يثير مصيره المؤلم أيّ شعور خاص.

لكن، وبالرغم من هذه الصورة الكئيبة، الشعراء يتحدّون أنفسهم، ويتحدّون العالم إذ يكتبون قصائدهم بكلمات تشتعل. في أزمنة الرعب قصائد الشعراء هي خيط الأمل، والضوء المقاتل في قلب الظلام.

نعم، يمكن أن يكتب الشعراء قصائدهم بأثر من المآسي. على أن السؤال الجوهري بالنسبة إلى الشاعر، هو أولاً وأخيراً: بأيّ لغة أكتب القصيدة أمام هول الجريمة؟

الشعر في الجوهر منه لغة الشاعر وطريقته في تعريف ذاته في العالم، والشعر لغات شتّى. لغات في لغة، وأحوال في حال، والشعر أمزجة وانتباهات تتبدل بالضرورة وفق اختلاف التجارب وتبدل الأحوال. لا كينونة للشاعر خارج لغته التي هي لغة متبدّلة بالضرورة، وعلى رغم اختلاف المدن التي يمكن للشاعر أن يحلّ فيها ويرحل عنها، إلا أنّ بيت الشاعر في آخر الأمر هو قصيدته.

العالم كله وطن الشاعر، لكن هذا الانتماء محكوم بمصادفات وضرورات لم تكن غالبا من اختياره. بهذا المعنى لا وطن نهائياً للشاعر سوى قصيدته فهي بيته الذي اختار.

عندما نعود مع الشاعر المنفيّ، قسراً أو اختياراً، إلى قصائده المبكّرة التي كتبها في بيته الأول نكتشف فيها السمات والملامح الأولى لصوته ولغته وخياله الشعري الذي سينمو ويتطور عبر الزمن. بدهي أن كلّ شيء سيختلف في ما بعد، في القصائد التي سيكتبها شاعر في مدن المستقبل بعيداً عن مدينته الأولى.

ولا ضير في أن يكتشف شاعر حيرته من حقيقة أن شخصاً آخر كتب تلك القصائد القديمة في دواوينه الأولى. شخص تركه حيث غادر، ليمكنه أن يكون شخصاً آخر في مدن أخرى وبين أناس آخرين غير أولئك الذين أسّسوا عالمه الأول.

أياً يكن الجواب عن هذه الحيرة، فإن الشعر يتغير مع كل قراءة جديدة له، فكيف به عندما يُكتب في أمكنة وأزمنة وأحوال مختلفة؟

مع كل مكان جديد يطرقه الشاعر ثمة مغامرة جديدة وخبرات جديدة.

والعلاقة بالمكان واللغة والناس تبقى رهينة الطبيعة الخاصة بالشاعر. ولا يمكن بحال أن أستبعد المزاج الشخصي والطبيعة النفسية للشاعر في تفاعلها مع ذلك الشعور الطاحن بالاغتراب الوجودي الملازم للشعراء.. ذلك شيء أقوى في أثره على لغة الشاعر من المكان والزمان والقدر الشخصي وطبائع الناس المحيطين به.

الشعراء يختلفون في ما بينهم كما تختلف الأمكنة. فلكل شاعر أصول ومرجعية وثقافة ومزاج وتطلعات نتعرّف عليها في قصيدته التي هي كل ما يملك وما يجعل له حيزاً منظوراً، في وجوده الاستثنائي.

الشعر لا يتنفس ولا يحيا إلا في الرموز والاستعارات، وليس ثمة في مادة الشعر الأولى قديم أو جديد بعيداً عن الجوهر، والشعر لا يعترف بالأزمنة، فالبعد والقرب يتباريان في معترك القصيدة.

لا جدران ولا حواجز بين ما نسمّيه الماضي أو الحاضر أو المستقبل، هناك فقط المسافات والعلامات في كينونة متصلة مشعة بالجمال.

والشعر يجمح كحصان كوني فوق الحواجز والحدود والتواريخ، الشعر كائن عصري وعابر للزمن.

في لحظة الكتابة، وهي لحظة كيانية، لكونها لحظة اتصال استثنائي للكائن المنصت إلى وجوده عبر الصّور والرموز وموسيقى الكون والكلمات، ثمّة حدث يفتح الزمن الصغير للشاعر على الزمن الكبير للكون، الزمن كله ملعب الشاعر، الزمن قبل أن يقسّمه المؤرخون إلى أزمنة وأمكنة وهويات، ليكون الكون مرئياً ومتخيلاً بالنسبة إلى الشاعر بكل ما يتحرك فيه وقد اعتمل وتفجّر وتلامح وصارت له صورة، هذا الكون، بجباله وبحاره وأنهاره وصحاراه وبلغاته وهوياته، بآلهته وأبطاله وضحاياه، وبإنسانه هذا الكائن الفريد المولع بالجمال هو ورشة عمل الشاعر وكينونته العابرة للزمن.

لوحة للفنان سمير الصفدي

لوحة للفنان سمير الصفدي

التعايش في عالم مضطرب

كيف يتم تفخيخ المستقبل بالأحقاد

هيثم حسين
كاتب سوري

نصادف أحيانا في حياتنا اليومية حالات يبالغ فيها بعضهم بالحديث عن أفكار يتطرّف بالدفاع عنها، يقوم بتضخيمها، أو مفاهيم يستعرضها وكأنّها لا يتخلّل إليها الشكّ بأيّ شكل من الأشكال، يتمّ استعراضها بثقة مبالغة تقترب من السذاجة، ليتمّ فرضها وتقبّلها وكأنّها حقائق ثابتة لا مجال لدحضها.

بالحديث عن حالات واقعية، تمكن الإشارة إلى أفكار من قبيل التعايش المأمول، الواجب، بين أطراف متناحرة، يربط بينها تاريخ دمويّ، يلهج بعض المنتمين إليها بأنّ من الواجب التعايش مع واقعهم الذي يفرض عليهم الانتقام الدمويّ بدوره، ليكون الحاضر عبارة عن دورة من الماضي، وحلقة في سلسلة مكرّرة مستعادة ماضية إلى المستقبل بالوتيرة نفسها، من دون أيّ تجرّؤ على المواجهة والمناقشة والمساءلة والتفنيد.

كيف يتعايش بعض الداعين إلى أفكار انتقامية مع ذواتهم؟ كيف تجدهم متصالحين مع أنفسهم؟ من أين لهم تلك الراحة المأمولة وهم يعلمون بأنّهم يؤجّجون نيران الأحقاد ويحرّضون على إراقة مزيد من الدماء؟

في واقع الحروب، وما يليها من محطات توجب التدبّر والتعقّل والمكاشفة، يظهر مَن يحتاج إلى تغذية الأحقاد ليضمن وجودا له في ساحة الاحتراب، سواء كداعية للقتل أو محرض عليه، مع تقنيع دعواته بأفكار عائمة عن الوفاء للغائبين، والإخلاص للراحلين، وبمفاهيم مائعة تستمدّ معناها من النقائض التي تشتمل عليها، أو تمرّرها بين طيّاتها الوحشيّة.

يتحوّل العيش المشترك المأمول إلى لعنة واقعية، يفقد معناه وتأثيره والمراد منه، يغدو شكلا من أشكال الخراب المعنوي اللاحق للخراب المادّي الذي تنتجه الحروب والنزاعات، يكون ركام الإنسان صورة عن ركام البناء، ولا يمكن البدء بالبناء من دون إعادة الاعتبار للمفاهيم، ووضعها في سياقها التاريخيّ، ونزع الإبهام والإيهام عنها.

يحتاج التعايش لرغبة حقيقية بالمكابرة على جراح الماضي، وإرادة قويّة بتجاهل نداءات الثأر والدماء، وتكبيت الصوت المنادي لتفخيخ الواقع والمستقبل بالأحقاد والفجائع، كي يكمل الدرب إلى بناء لاحق، للإنسان الذي أنهكته الحرب، قبل البناء المادّي نفسه، فلا يصلح الترقيع في مثل هذه الحالات، لأنّ المضيّ قدما تحت أعباء المظلوميات المتفاقمة يدفع صاحبه للتغريب والبحث عن سبل لتجاهل وحشية الحرب المخلّفة، والتي تستمدّ عوامل تجدّدها من المحن والكوارث التي أنتجتها.

يكون نداء العقل، أو الصوت الداعي للتعايش الحقيقيّ مقموعا، ويصبح صاحبه مقهورا، لأنّه يشعر بغربته عن محيطه، ولأنّه يحمل محنته معه، لا أحد يودّ الاستماع إليه، أو تقدير دعواته، فيبدو نشازا في جوقة متهافتة على الاستقطاب والتناحر، يُلقى به إلى هاوية اليأس كي يتجرّع وحشته، ويتعايش مع غربته الحقيقيّة التي تظهره سجين أوهام قاتلة لأولئك الذين يحرصون على تلغيم غدهم بقنابل الأمس المؤقّتة للتفجير في أيّ منعطف أو احتكاك.

ومن المفجع أنّ المظلوميات تقود فئات وطوائف من البشر في مختلف مراحل حياتهم، حيث ترى الكثيرين يستعذبون فكرة إحياء الظلم الذي لحق بهم، سواء كان حقيقيا أو متخيّلا، يعيشونه، أو يمثّلون ذلك، بقصد توظيفه واستغلاله راهنا ومستقبلا، وبعثه من رقاده، وتجديده لتحصيل امتيازات آنية عبره.

تكون المظلومية جسرا تجاريّا لجني الثمار المؤجّلة المتخيّلة التي يزعم صاحبها أنّها واجبة الدفع له، وهو المجسّد لدوره ونزيله الدائم.

تصادف أحيانا سجين رأي يحاول تحميلك مِنّة سجنه، أو شخصا يوجب عليك احترامه لأنّه ثار ضدّ نظام ما، أو مدعيّ بطولة ما يطالبك بتقدير ما أقدم عليه بشكل مبالغ، وكأنّه افتداك بروحه وماله، وذلك في حين أنّ المفترض بأنّ كلّا من هؤلاء إنّما كان يمارس قناعته، ويفعل ما يؤمن به، أو ما يفترض أنّه يشعر بالمسؤولية تجاهه، ولا ينتظر عليه شكرا أو تقديسا أو تقديرا، لأنّ مكافأته تكمن في إرضائه لنفسه وإيمانه وقناعته بفعله.. ويكون من اللافت والمستهجَن القيام، عن دراية أو جهل، بتحويل فعله إلى تضحية، فيمثّل دور الضحيّة، ويطالب بمكافأته عليه، معنويا أو ماديا..

لعلّ بالإمكان وصف الشعور المستعاد والمكرّر توظيفه بالمظلومية هو صورة من صور الدونية المقنّعة.

لوحة للفنان ياسر صافي

ولا يمكن للمرء أن يكمل حياته مسكونا ومقادا بتكتيكات بائسة كهذه، ذلك أنّ الحياة أوسع من حصرها بجانب معيّن، أو تقييدها بصورة أو حادثة.

بعض الناس مسكونون بشعور قاهر بالدونية، يقودهم في حلّهم وترحالهم، يفرض عليهم سكناتهم وحركاتهم، ويملي عليهم ما يفعلونه تحت تأثيره المدمّر، الماحي للشخصية التي تصبح نزيلة قهرها وانسحاقها، يستميتون للتقرّب من أصحاب السلطة والنفوذ، يسعون للتماهي مع مَن يعتبرونهم قدوة لهم، أو مثار إعجاب وتقديس، تراهم يحاكون أسلوبهم ويتودّدون لهم للتقرّب منهم، يتعاملون بسطحية وبؤس وانبطاح يناسب ما يشعرون به من قهر.

ونظير هذا الشعور البائس هو الشعور البائس بالفوقيّة، وتمثيل الدور، وتجسيده بحيث يتوهّم صاحبه أنّه مختلف بتميّزه وفرادته وعظمته، وأنّ الآخرين يحتاجون لسنوات ضوئيّة لمحاولة اللحاق به، وأصحابه أناس يعيشون تفاهة الشعور المضلّل بالتفوّق والعظمة ويعكسون من خلاله دواخلهم وقهرهم بطريقة أخرى كذلك.

لربّما يصحّ القول في هاتين الحالين إنّ تحقير الذات والمبالغة بتضخيمها معادلان لبعضهما بعضا، وإنّ العلل مستوطنة لا شفاء منها، وتحتاج لتضحية من نوع ما للتخلّص من آثارها الخطيرة على الفرد ومحيطه الاجتماعيّ.

من المؤسف أنّنا نحيا في عالم مضطرب، يكون صوت الشعوبيين فيه أعلى، وأكثر تأثيرا، يتحوّل الشعبويّ إلى رمز يجمع من حوله مسوخا يمجّدونه، وفي ميادين السياسة والرأي والفكر يتكاثر أنصار هؤلاء الشعبويين وأشباههم، لأنّه يناغي فيهم الغرائز التي تحطّ من شأن الآخرين، فيجدون راحتهم في المبالغة بتعظيم الذات، وتكرار أفكار سائلة لا تمتّ لروح العصر والإنسانية بأي صلة، حيث كلّ منهم يكون جسرا للآخر إلى أطماعه وأوهامه بالعظمة والفرادة.

> **لعلّ بالإمكان وصف الشعور المستعاد والمكرّر توظيفه بالمظلومية هو صورة من صور الدونية المقنّعة. ولا يمكن للمرء أن يكمل حياته مسكونا ومقادا بتكتيكات بائسة كهذه، ذلك أنّ الحياة أوسع من حصرها بجانب معيّن، أو تقييدها بصورة أو حادثة**

أمّا كيف تمكن مواجهة هذه الحالات المرضية من نداءات الدم، وألاعيب المظلومية وأقنعة الشعبوية، فهذا ما يحتاج إلى جهد مركّز ووعي كبير من قبل المؤمنين بفكرة العيش المشترك التي يفترض بها أن تكون محطّ تقدير واهتمام بعيدا عن حمولة الماضي بما تشتمل عليه من مآس وفجائع.. وهنا يأتي دور الأدب والفكر والفنّ في خدمة الأهداف الإنسانية، لتجاوز الاضطراب وترتيب جزء من الفوضى التي تجتاح عالمنا بطريقة قاسية.